هدف الفلسفة

بقلم ايشيا برلين

عرض مجاهد عبد المنعم مجاهد

عندما اصبح ايشيا برلين في سن الخامسة والثلاثين نال شهرة كبيرة كفيلسوف ومتحدث عظيم بعدة لغات . ولقد ولد الفيلسوف في روسيا ، ثم رحل الى انجلترا بعد الثورة. ثم اصبح استاذا للعلوم الاجتماعية والسياسية في جامعة اكسفورد ، ثم قطعت هذه الرسالة عندما خدم في السفارات الانجليزية في واشنطن وموسكو . وتدور كتاباته في فلك الفلسفة والتاريخ والادب ، وقد كتب عن سيرة حياة كارل ماركس وايفان ترجنيف .

ما هو موضوع مادة الفلسفة ؟ ليس ثمة اجابة شافية عامة على هذا السؤال. فالاراء تختلف في هذا الصدد ،من اولئك الذين يعتبرونها تأملا في كل زمان وكل مكان على اساس انها مليكة العلوم ، حيث تعد حجر الزاوية في المعرفة الانسانية ، الى اولئك الذين يريدون نبذها باعتبارها علما زائفا يستغل غموض الكلمات .

وربما كان افضل طريقة للاقتراب من هذا الموضوع التساؤل عما يكون مجال اي نظام آخر في الكيمياء او التاريخ او الانثروبولوجيا ؟ هنا يبدو ان موضوعات الدراسة او مجالاتها تتحدد عن طريق نوع الاسئلة التي تخترع لكي تقدم اجابات . وتكون الاسئلة نفسها معقولة لو عرفنا اين نبحث عن اجاباتها .

اذا انت سألت اي سؤال عادي مثل «أين معطفي ؟» ، «لماذا انتخب مستر كنيدي رئيسا للولايات المتحده الامريكية؟» ، « ما هو النظام السوفييتي للتشريع الجنائي ؟ » فانك تعرف بطريقة عادية كيف تنطلق باحثا عن الرد . ربما كنا لا نعرف الجواب بانفسنا، لكننا نعرف الرد في حالة تساؤلي عن مكان معطفي حين ابحث في الصوان او على الكرسي . وفي حالة السؤال عن انتخاب كنيدي أو التشريع السوفييتي فاننا نرجع الى خبراء يمدوننا بوثائق ومعلومات تجريبيه تؤدي وتفضي الى نتائج واضحه .

بمعنى آخر ، اننا نعرف أين نجد الجواب . اننا نعرف ما الذي يجعل الاجابات ممكنة وما لايجعلها كذلك . ان ما يجعل هذا النوع من الاسئلة معقولا ، هو اننا نعتقد ان الجواب يمكن اكتشافه بالوسائل التجريبية ، أي عن طريق الملاحظة أو التجربة أو المناهج التي تستخدم الملاحظة والتجربة . وهناك صنف آخر من الاسئلة نعرف الاساس السليم الذي نجد فيه الاجابات ، وأعني به العلوم الصورية مثل الرياضة او المنطق أو النحو أو الشطرنج حيث توجد مجموعة من المسلمات الثابتة وقواعد الاستنباط التي نفترضها ونسلم بها ، ونحن نصل الى اجابات شافية عن طريق استخدام هذه المقدمات أو المسلمات والقواعد . لقد وصل رجال يمتازون بالعبقرية الى نتائج في مجالات هذه العلوم ، ويستطيع الناس العاديون أن يستعملوها بطريقة آلية لكي يصلوا الى نتائج سليمة .

ان جميع مجالات التفكير الانساني هذا هو اننا اذا وضعنا السؤال فاننا نعرف أي الطرق يوصلنا الى الاجابة، وما تاريخ التفكير الانساني المنهج الا مجهود عظيم لصياغة جميع الاسئلة التي تخطر للبشرية في أحد هذين النوعين الكبيرين : الاسئلة التي تعتمد باجاباتها على معطيات الملاحظة والتجربة ، والاسئلة التي تعتمد اجاباتها على الاحصاء المحض . لا توجد الا اسئلة تجريبية ، اسئلة صورية .

لكن هناك اسئلة معينة لا تخضع لمثل هذا التصنيف « ما هي الزرافة ؟ » انه سؤال يجاب عليه عن طريق الملاحظه التجريبية . وبالمثل « ما هو الجذر التكعيبي للعدد ٧٢٩ ؟ » انما تقوم الاجابة عليه عن طريق الاحصاء . لكن اذا سألت : « ما هو الزمن » ، « ما هو العدد ؟ » ، « ما هو الهدف من الحياة الانسانية على الارض ؟ » ، « هل انت متأكد ان الناس جميعا أخوة ؟ » . فكيف تنطلق باحثا عن اجابه ؟ لو كان السؤال . «اين معطفي ؟ » فان الجواب هو. « في الصوان » سواء كان الجواب خطأ او صوابا . لكن لو سأل طفل : « اين الصورة في المرآة ؟ » فسوف نتحير، ذلك لان الصوره ليست على سطح المرآة ، كما انها ليست وراء المرآة وهكذا .

ان أي انسان يفكر كثيرا وفي توتر شديد حول اسئلة مثل: «ما هو الزمن ؟ » او « هل يمكن أن يتوقف الزمن ؟ » أو « عندما أرى اثنين ، فما هو هذا الرقم ؟ » ، « كيف يتسنى لي أن أحكم أن الاخرين أو الاشياء الاخرى ليست مجرد تخيلات ذهنية ؟ » لو فكر الانسان هكذا فسوف يقع فريسة الحيرة اليائسة .

يبدو أن هناك شيئا غامضا في هذه الاسئلة ، حيث ان الاسئلة لا تتضمن أية اشارة الى الطريقة التي نجد بها ردا على هذه الاسئلة . انها ترد الانسان الى الحيرة، وهي تضايق الناس العمليين لانها تؤدي الى اجابات واضحه شافيه أو معرفة مفيدة من أي نوع . ان بعض هذه الاسئلة عن الوقائع والبعض الاخر عن القيمة ، بعضها اسئلة عن الكلمات ، والاخرى عن المناهج التي يتبعها العلماء والفنانون والنقاد والناس العاديون في شئون الحياة اليومية ، وهناك اسئلة اخرى حول علاقات فروع المعرفة المختلفة ، بعضها يتعلق بالفروض المسبقة للتفكير ، وبعضها يتعلق بالغايات السليمة للسلوك الاخلاقي أو الاجتماعي أو السياسي.

ان الخصيصة المشتركة بين كل هذه الاسئلة هي انه لا يمكن الرد عليها عن طريق الملاحظة أو العد ، لا عن طريق المناهج الاستقرائية أو المناهج الاستنباطية ، والسائل لا يعرف أين يتجه بحثا عن اجابة، حيث لا توجد قواميس أو دوائر معارف أو خبراء يمكن الرجوع اليهم في ثقة في هذه المسائل . زيادة على ذلك ، فان بعض هذه الاسئلة يتميز بأنه عام وانه يتناول مسائل متصلة بالمبادىء والاصول، وهناك اسئلة ، وان كانت ليست عامة بنفسها ، الا انها قابلة لاثارة مسائل تختص بالمبادىء والاصول .

مثل هذه الاسئلة هي مسائل فلسفية . وبعض الناس يشكون فيها أو يزدرونها وفق امزجتهم. ولهذا يعاد صياغة هذه الاسئلة بطريقة يمكن الرد عليها بطريقة تجريبية أو صورية .

ان تاريخ المعرفة الانسانية هو محاولة دائبة لرد جميع الاسئلة الى أحد القالبين ، لان أي سؤال « غريب » يحول الى أحد هذين النوعين ، حتى يمكن النظر اليه بطريقة تجريبية أو بطريقة صورية ، ومن هنا لا يصبح سؤالا فلسفيا ، بل يصبح جزءا من العلم المعروف . ومن هنا فليس غريبا اعتبار علم الفلك في العصور الوسطى موضوعا « فلسفيا » حيث لا نرد على الاسئلة في ذات الوقت عن طريق الاحصاء او الملاحظة . فلما أمكن استخدام مناهج الملاحظة والتجربة ، أمكن لعلم الفلك أن يصبح علما .

والقضيه نفسها قائمة اليوم في علم النفس ، وعلم اللغة ، والمنطق نفسه ، ولكنها تجاهد للابتعاد عن كل ما لا يخضع للتجربة أو للنواحي الصورية ، فاذا استطاع أحدها أن يتكامل في هذا الاتجاه يصبح علما لماض فلسفي خصب، لكن له حاضر او مستقبل تجريبي او صوري . ان كل علم انما يحاول أن يقتل ماضيه ليصبح علما ويتخلص من المشاكل « الفلسفية » التي لا تتضمن في داخلها تكنيك الوصول الى حل لها .

لكن سيكون اندفاعا منا ان نقول ان كل علم قد تخلص تماما من مشاكله الفلسفية . فهناك مشاكل في الوقت الحالي في مجال علم الطبيعة تلوح مشاكل فلسفيه ولا يوجد أي حل تجريبي او صوري لها . ومن الملاحظ ان من يتصدى لمثل هذه المشاكل ليس من الضروري ان يكون عالما ، ليست هناك اسئلة فيزيقية بالنسبة للفيلسوف وان كانت هناك بعض الاسئلة في عين عالم الطبيعة لا تزال فلسفية .

ان مجالات الاسئلة الفلسفية لا تتقلص ، فكلما تقدمت العلوم ، ازدادت المشاكل الفلسفية ، وربما كانت هذه الحقيقة تصدم فلاسفة عصر التنوير الذين كانوا يعتقدون أن جميع المشاكل العويصة سوف تحلها المناهج التي حققت نجاحا في أيدي العلماء الطبيعيين في القرن السابع عشر، وفي بداية القرن الثامن عشر .

ما زالت في الوقت الحالي الاسئلة القديمة التي أرقت القدماء : مثل : هل المخلوقات موجودة لتحقيق غرض يريده الله او الطبيعة ، وما هو هذا الهدف ؟ وهل الناس احرار ام انهم مجبرون ؟ وهل الحقائق الاخلاقية والجمالية عامة وموضوعية أم هي نسبية وذاتية ؟ هل الانسان مجرد حزمة من الدم واللحم والاعصاب، أم هو روح خالدة تسكن الارض؟

ان علم الطبيعة والكيمياء لا يقولان لنا شيئا عن طبيعة الالزامات الخلقية ولماذا يجب أن يتبعها الانسان، ولا تقول لنا شيئا عن الشر والخير، وهل السعادة والمعرفة، العدالة والرحمة ، الحرية والمساواة ، الفاعلية والاستقلال الفردي هي اهداف سليمة متساوية للسلوك الانساني أم لا ؟ وهل هي تتنافس معا ، وما هي معايير الاختيار وكيف نتيقن من سلامتها وصدقها ، وما هو المقصود بالسلامة والصدق ، واذا كان مفكرو القرن الثامن عشر قد قالوا : « قانون الطبيعة ، الطبيعة وحدها ، كان مختبئا في بطن الليل » . ثم قال الرب : « فليأت نيوتن ، ثم اصبح كل شيء مضيئا » . الا انه في مجال العلوم البشرية، السنا محتاجين الى القوانين المنضبطة كقوانين نيوتن في الطبيعة ؟

ان الفلسفة تطعم نفسها من غموض اللغة ، فاذا زال الغموض عن اللغة ، فمن المؤكد اننا سنجد اسئلة تتعلق بالعقائد البشرية وامال الناس واحتياجاتهم . وما نحن محتاجون اليه هو علماء في النفس والانثروبولوجيا والاجتماع والاقتصاد ، ما نحتاج اليه هو نيوتن او مجموعة منه، وبهذه الطريقة تنهدم كل حيرة للميتافيزيقا للابد .

كان هذا أمل الفلاسفة المعروفين في عصر التنوير من هوبر الى هيوم الى هلفتيوس الى هولباخ الى كوندورسيه الى بنتام الى سان سيمون الى كونت واتباعهم، لكن هذا الهدف كان مصيره الفشل فعالم الفلسفة لا يمكن أن يتحول الى سلسلة من حالات علمية متتابعة. فالاسئلة الفلسفية تستمر تسحر وتفتن العقول الباحثة المعذبة .

فلماذا كان هذا هكذا ؟ هناك رد جميل لهذه القضية نجده عند الفيلسوف الالماني كانت اول فيلسوف اوضح ووضع تمييزا بين اسئلة الحقائق واسئلة الانماط كما تبدو لنا . هذه الانماط أو القوالب أو اشكال التجربة ليست محل بحث أي علم طبيعي ممكن .

لقد كان كانت هو اول من اقام فاصلا مميزا بين الوقائع باعتبارها معطيات التجربة كما هي : الاشخاص والاشياء والحوادث والصفات والعلاقات التي نلاحظها او يشير الفكر اليها ، والقوالب التي تشكل في داخلها هذه الاشياء وتعكسها .

لقد ذكر معظم الفلاسفة اليونانيين أن جميع الاشياء لها غايات دبرتها الطبيعة ، وهي غايات لا تملك الا أن تسعى لتحقيقها .

أما مسيحيو العصور الوسطى فقد رأوا العالم باعتباره نظاما هرميا متدرجا يدعى فيه كل انسان وكل شيء ان يحقق وظيفة خاصة عن طريق الخالق الالهي ، وهو وحده يفهم هدف النموذج كله ويجعل السعادة والتعاسة موقوفين على الدرجة التي يطيع فيها كل مخلوق الاوامر التي يتحقق من خلالها تناسق العالم .

اما اصحاب المذهب العقلي في القرنين الثامن عشر

صدر حديثا

ازمة الجنس
في القصة العربية

بقلم

غالي شكري

منشورات دار الآداب

والتاسع عشر فلم يجدوا أي غرض في أي شيء ، بل وجدوا ما يخلقه الانسان لاشباع احتياجاته ، وأرجعوا كل شيء الى العلة والمعلول ، فكل شيء هو ما هو ويتحرك ويتغير وفق طبيعته هو . وكانت هذه نظرة مغايرة .

ان نظرات الانسان المختلفة نتيجة لمفهوم كل انسان عن العالم : افكار حول العلة والغرض، الخير والشر، الحرية والعبودية ، الاشياء والاشخاص ، الحقوق ، الواجبات، القوانين ، العدالة ، الحق ، الزيف.

اذن فالفلسفة هي الى حد كبير الفحص الناقد ليس لما هو موجود او ما وجد او ما سوف يوجد ، بل هي الطرق التي نتصوره بها ، ليست الفلسفة هي جزئيات التجربة، بل القوالب او الاشكال التي تصاغ فيها هذه الجزئيات.

ليست الفلسفة دراسة تجريبية ، وليست هي نوعا من الاستنباط الصوري شانها في هذا شأن المنطق والرياضة. ان مادة موضوعها هي القوالب الدائمة او شبه الدائمة تلك التي نتصور من خلالها جزئيات التجربة . الغرض ضد السببية الالية ، المذهبية ضد التجميعية ، الكائن الزماني القائم في مكان ضد الكائن اللازماني ، الواجب ضد الشهوة، القيمة ضد الواقعة .. هذه كلها قوالب ، انماط . بعضها قديم قدم التجربة الانسانية نفسها، وبعضها مجرد تحويلات وانتقالات . وبهذه الانتقالات تتخذ المشاكل الفلسفية عند الفيلسوف مظهرا حيويا وتاريخيا . فالاطر والقوالب المختلفة مع وجهات النظر المتعلقة بها تنبعث في ازمان مختلفة .

وغالبا ما تتصادم الانماط والنماذج، بعضها يكون غير دقيق لانه لا يشمل عديدا من مظاهر ومعالم التجربة ومن ثم تحل محلها انماط ونماذج اخرى تؤكد ما لم تشغله الانماط والنماذج الاولى ، لكن ربما تجعل الواضح غامضا. ان مهمة الفلسفة مهمة صعبة واليمة ، مهمتها ان تستخرج وتكشف القوالب والنماذج الخفية بالمصطلحات التي يفكر بها البشر، مهمتها ان تعرض للضوء ما هو غامض او متناقض فيها وان ترفع الصراع بينها الذي يمنع تكوين مزيد من الطرق السليمة لوصف التجربة وشرحها وجعل عناصرها تنسجم وتتوافق ، ثم بعد هذا ، في مستوى « اعلى » تفحص طبيعة هذه النشاط نفسه (نظرية المعرفة ، المنطق الفلسفي ، التحليل اللغوي) وتجلو ايضا النماذج الخفية التي تعمل في هذا الشاط الثاني.

فاذا قام اعتراض بأن كل هذا يبدو تجريديا وبعيدا عن التجربة اليومية ، وانه لا يرتبط بالمصالح والاهتمامات الاساسية والسعادة والشقاء ، فجوابنا ان هذا التحامل زائف . لا يستطيع الناس ان يحيوا دون بحث لمحاولة وصف وشرح العالم لانفسهم . والاشكال التي يستعملونها في هذا لا بد وانها تؤثر تأثيرا للغاية في حياتهم ، ولا اقول بطريقة لا شعورية ، فكثير من بؤس الانسان يرجع الى كل ما هو آلي لا شعوري أو تطبيق الاشكال حيث لا تنطبق.

فاذا اريد لاي امل من وجود نظام مدرك عقلي على الارض فانه امر قائم في تبيان هذه الانماط والنماذج والاشكال الاجتماعية منها والاخلاقية والسياسية ، وفوق كل شيء لاستخراج الاشكال الميتافيزيقية الضاربة في الاعماق .

القاهرة **مجاهد عبد المنعم مجاهد**

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ السأم

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للمأساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

منشورات دار الاداب ـ بيروت